كسب الـرزق والتـــــــجارة

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 26 مايو 2018

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

قلنا أمس إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ترك مهنة رعي الغنم وانتقل إلى مهنة أخرى جديدة، وهي التجارة، ولنواصل رحلتنا معه صلى اللّه عليه وسلم.

وفي عالم التجارة – وهي كانت مهنة أهل قريش – جاءته صلى اللّه عليه وسلم الفرص للسفر والتعامل مع البشر بمختلف أنواعهم وطباعهم، فهذا رجل فظ، والآخر سهل التعامل، والثالث غضوب، والرابع صعب التعامل، وذلك بدوي قادم من الصحراء والبادية والآخر يعيش في المدينة، وثالث يعتمد في حياته على الفلاحة وآخرون من مختلف الأنواع والطباع والصفات، فكان كتاجر صلى اللّه عليه وسلم يتعامل مع كل تلك النفسيات والطباع والرغبات والاحتياجات والأفكار باتساعها وضيقها بمنتهى الحرفية والإبداع والقدرة التي وهبها له الخالق عز وجل، ليس ذلك فحسب، وإنما كان يجب أن يعرف كيف يتعامل مع كل تلك الصفات وعليه ألا يخسرهم حتى يكسب رزقه منهم، وكان له ذلك.

وفي السفر أيضًا فوائد كثيرة يصعب حصرها هنا، حيث إن السفر يمنح الإنسان حالة من الاسترخاء وتُسهم مشاهدة الأمكنة الطبيعية الجميلة بتغيير حالة الإنسان وصفاء ذهنه، ويمد الإنسان بالشّجاعة اللازمة للمغامرة، كما يستخرجُ الإبداع الذي بداخله مما يؤثّرِ إيجابًا في شخصيّته، ويُثري معلوماتِ الإنسان ويزيدُ من اطّلاعه على العديد من الثقافات الجديدة، وكذلك يُكسب الإنسان مهاراتٍ جديدةً، وذلك عبر اختلاطه بالكثير من النّاس من مُختلف الثّقافات، ما يفتح الفرصة له لتعلّم وتبادل المهارات والخبرات في مُختلف المجالات، ويخلقُ اهتماماتٍ جديدة للإنسان، فحين يطلّع الإنسان على ثقافات الشّعوب الأخرى قد يهتمّ لأمرها ويُتابع شغفه وحُبّه في معرفة المزيد عنها فيبحثُ عنها وعن أصولها، وربمّا ينتهي به الأمر دارسًا أو باحثًا عن هذه الثّقافات، بالإضافة إلى أن السفر يُطلق مواهب الإنسان ويكتشفُ أفضل ما فيه؛ وذلك بسبب ابتعاد الإنسان عن مُحيطه الذي تحكمه عاداتٌ وتقاليدٌ مُعيّنة، مما يفتح له المجال بتجريب أمور جديدة، فضلاً عن تعرّف الإنسان على ثقافات مختلفة عن ثقافته الأصلية، الأمر الذي يزيد من فرص اكتشاف مواهبه.

وكذلك يتعلّم الكثير من الأخلاق كخُلق التّسامح؛ إذ تخرجُ العنصرية في غالب الأمر نتيجةَ جهلٍ عميق بأفكار الشّعوب الأخرى وثقافاتها، فيأتي السّفر لتكون الفرصة التي تكسر هذا الحاجز بين الإنسان وهذه الثقافات، فتمنحه الفرصة لفهم

طبيعتهم، ومن ثمّ التعامل معهم بكل أريحية وتسامح دون تغليب أحكامٍ مسبقة مُتعصِّبة، ويقول الكاتب الأمريكيّ مارك توين: "السفر يقتل الانحياز، والتعصب الأعمى، وضيق الأفق، ولهذه الاعتبارات فإن الكثيرين ممن نعرفهم يحتاج إليه بشدة".

وبالإضافة إلى ذلك فإنه يزيد من مرونة الإنسان في التّعامل مع الآخرين، وقوانين البلدان، والعادات والتّقاليد الخاصة بالثّقافات الأخرى التي لم يتعرّف إليها سابقًا، فيمنحه قدرةً على التكيّف مع كلّ هذه المُتغيِّرات، ويُعزّز استقلالية الإنسان؛ حيثُ يمنحُه فرصةً ليعتمدَ على نفسه ويتّخذ قراراته ويحلّ مشاكله بعيدًا عن أيّ تأثيراتٍ أخرى، كما يزيد من قدرة الإنسان على التّعامل مع التحديّات التي تعترض طريقه، مما يُكسبه خبرةً لا تكسبه إياها أي فرصة أخرى.

وأيضًا يزيدُ من تركيز الإنسان، ويُحسِّن أداءه، حيثُ أثبتت دراسةٌ في مجلّة علم النّفس البيئي أنّ تركيز الأفراد وأداءهم يتحسّن إذا قاموا بمشاهدة منظر طبيعي لفترة زمنية مقدارها 40 ثانية فقط، ومن المعلوم أنّ الإنسان في السّفر يُشاهد الكثير من هذه المناظر ولفتراتٍ طويلة.

هذا يعني أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم استفاد من كل ذلك، بالإضافة إلى أنه صلى اللّه عليه وسلم لم يكن يتعامل مع كل هذا فحسب وإنما كان يتعامل مع المال والنقود والبضائع والمعاملات

الرياضية والحساب والجمع والطرح وما إلى ذلك، وحتى وإن كانت العمليات الحسابية بسيطة ولكنها حتمًا ستحتاج إلى عقلية رياضية بطريقة أو بأخرى حتى ينجح الإنسان في مهماته المكلف بها، ومن جانب آخر فإن الذي يتعامل مع المال والتجارة وتلك المبالغ الطائلة – حسب ذلك الوقت – ويربيها ويضاعفها لهم ويعيدها إليهم، أي للتجار، بأرباحها من غير أن يمد يديه ويأخذ منها من غير وجهة حق، كان كفيلاً أن يكون إنسانا من نوع آخر، إنسان يتعامل مع كل هذه المعطيات بأريحية تامة، فكان هو صلى اللّه عليه وسلم ذلك الإنسان، لذلك وجد القبول في مجتمع التجار كما وجده سابقًا في مجتمع الرعاة والمجتمع المكي، وكان من نتيجة ذلك أن عرضت عليه السيدة خديجة رضى اللّه عنها الزواج، فإن لم يكن بكل تلك المهارات وكل ذلك الصدق وتلك الأمانة، فهل يمكن لسيدة من أواسط القبائل نسبًا وحسبًا وثراءً أن تعرض عليه الزواج وهي لا تعرف عنه في تلك اللحظة إلا تلك الأخلاق والقدرات والمهارات، فهي لا تعرف ولم يكن أحد يعرف أنه سيكون نبي هذه الأمة.

تزوج صلى اللّه عليه وسلم أم المؤمنين خديجة رضى اللّه عنها، وهو في قمة النضج الفكري والجسدي والنفسي والمعرفي، إلا أن نفسيته ما زالت تتوق إلى أمر آخر لا يعرف ما هو، ولكنه ما زال يبحث.

نتوقف اليوم هنا لنواصل غدًا إن شاء اللّه تعالى.